الكتابة الموجّهة إلى الطفل في زمن الكارثة، تجربة الطاهر بن جلّون أنموذجاً

Child Literature at Times of Crisis: The Case of Taher Ben Jelloun

د.شهرة بلغول*

تاريخ الإرسال: 2022/02/01	تاريخ القبول: 2022/03/24	تاريخ النشر: 2023/12/31

الملخص:

تروم هذه الدراسة التساؤل حول طبيعة الكتابة الموجّهة إلى الطفل خلال فترة الكوارث والأزمات، عبر تسليط الضوء على أحد أنماطها، والبحث في مسوغات وغايات إدماج الطفل في الإشكالات التي يطرحها الوضع الجديد، فضلًا عن تأمّل وتحليل التقنيات التي تستوعب هذا النوع من القضايا والتعرف على حظ الساحة الأدبيّة منها تزامناً مع انتشار جائحة كورونا، وذلك من خلال التطرق إلى التجربة التي قدّمها الطاهر بن جلون في إطار تحريض الطفل على الفعل الفلسفي والتفكير النقدي.

الكلمات المفتاحية: الطفل، الكارثة، العنصريّة، الجائحة، الفلسفة.

Abstract:

Thisstudy aims to question the nature of writing directed to the child during periods of crisis, by shedding light on one of its types, and questioning the motivations and objectives behind integrating the child into the concerns and problems posed by the new epidemic situation. Also, this paper seeks to analyze the techniques which accommodate this type of issue and how it occupied a central place in the arena of literary writing especially during the Corona pandemic, by addressing the experience presented by Taher Ben Jelloun in the context of inciting the child to philosophical action and critical thinking.

***جامعة العربي بن مهيدي، أم البواقي (الجزائر)**

chahra.belghoul@univ-oeb.dz

Key words: *child, crisis, racism, pandemic, philosophy.*

*** *** ***

المؤلف المرسل: شهرة بلغول chahra.belghoul@univ-oeb.dz

1. مقدمة:

تطرح الكتابة الموجّهة إلى الأطفال في العالم العربي العديد من الإشكالات، لعلّ أبرزها عدم تجاوزها في أغلب الأحيان نطاق اهتمامات ضيقة، لا تخرج عن الموضوعات التقليدية المطروحة في الأزمنة العادية، والتي تُعنى بالطفل لغايات تتراوح بين التسلية والتعليم، من خلال خلق عوالم تخييلية يمتزج فيها الواقع بالخيال، ويراعى فيها السياق الثقافي المرجعي لتأسيس قيم تربويّة تتماشى مع المنظومة الأخلاقية والدينيّة السائدة، بأسلوب يُغلِّب الوعظ والتلقين، فالمتأمل للمشهد الإبداعي لا يكاد يلمس أية خصوصيّة في الاهتمام الموجه إلى الطفل من قبل المؤسسة الأدبية الرسميّة خلال فترة الكوارث.

يبدو هذا النوع من الكتابة إلى حد ما ملائمًا للوضعية الطبيعية، حيث تسير الأمور وفق وتيرة منتظمة، في جو يتّسم بالاستقرار بشكل عام، لكن ماذا عن الكتابة للأطفال في زمن الكارثة، هل يقصى الطفل من دائرة الاهتمام، أم يحال إلى الظل لأنّه في نظر البالغين "قاصر" غير مهيأ للخوض في التباسات الواقع الجديد، الذي يطرح بدوره الكثير من الأسئلة والمعضلات الوجوديّة التي تظل عصيّة عن الفهم والإدراك؟

2. منزلة الطفل في زمن الكوارث والأزمات:

تفرض التحولات الطارئة التي يشهدها عالمنا اليوم ضرورة إعادة النظر في العديد من القضايا التي ظلت مقصيّة بعد أن أزيحت من دائرة الاهتمام، بفعل التسليم المطمئن بالأجوبة التي حملتها المنظومات التقليديّة، فالمعضلات التي أفرزها واقع العولمة العابرة للحدود أو ما يسميه زيجموند باومان Zygmunt Bauman بالأزمنة السائلة، والأزمات التي تعصف بالبشرية من حين إلى آخر، ما فتئت تقض مضجع الإنسان الذي وجد نفسه أعزل في مجابهة الأسئلة الوجوديّة الكبرى، بعد أن تداعت معظم حصونه المعرفيّة، ولعل أبرز المعضلات التي تواجه البشرية اليوم تتمثّل في العنصريّة والأوبئة.

ليس الجمع بين العنصرية والأوبئة من قبيل الصدفة اللغوية التي ولّدها التجاور، بقدر ما يعود إلى الارتباط الوثيق بينهما، نتيجة السمات المشتركة والتداعيات الخطيرة لكليهما، إذ كثيراً ما يحضر الوباء بوصفه استعارة رمزية للعنصرية؛ بحكم انتشارها السريع وعجز كل المحاولات لحصرها والقضاء عليها، فضلاً عن دلالته الأصليّة، كما أن زمن الجائحة يسهم إلى حد كبير في تصاعد حدة الخطاب العنصري، لتوفّر الأسباب التي تعزّز الخوف من الآخر وتبرّر استبعاده وشيطنته، ولا أدلّ على ذلك من خطاب الرئيس الأمريكي السابق دونالد ترامب Donald Trump حول الصين، ووصفه لجائحة كورونا بالوباء (الفيروس) الصيني.

يرى علماء الاجتماع أنّ الطفل في زمن الجائحة مُعرّض لأن يفقد الحد الأدنى من الوجود الاجتماعي، نتيجة إزاحته من الفضاء العام، في ظل سياسات الحجر والعزل التي تفضي إلى التضييق على الحريات بشكل لا يراعي خصوصيته واحتياجاته، ممّا يكسب هذه التجربة وقع الانقطاع عن العيش، فيغدو البيت أشبه ببرزخ يفصل بين عالمين: عالم الحياة السابق وعالم الموت القادم، ممّا يجعل فكرة التطهّر والبحث عن الخلاص ولو رمزيًا ماثلة في الوعي واللاوعي؛ ذلك أنّه حيثما ينمو الخطر تنمو إمكانات الخلاص على حد تعبير الشاعر هولدرلين، كما يخلق تنامي مشاعر الخوف من الموت فجوة لا تنفك تتسع بين عالم البالغين وعالم الأطفال، في ظل اختيار كل طرف سبيل خلاصه الفردي، فبينما يلجأ البالغون إلى منابع روحيّة أو ماديّة كإجراءات دفاعية تقيهم المواجهة المباشرة مع قلق الموت المحدق وتحميهم من الغرق في دوامة الحزن والألم، يلجأ الأطفال إلى الفضاء الافتراضي وينغمسون في الألعاب الإلكترونيّة لمواجهة الفراغ المخيف الذي يهدد بابتلاع سنوات طفولتهم، فما السبيل إلى معالجة هذا الوضع في ظل العجز عن تجاوز الجائحة وآثارها المدمّرة على صعيدي الصحة العضوية والنفسيّة؟

شغلت هذه المسألة الروائي المغربي الطاهر بن جلون واستطاع إخراجها في قالب غير مسبوق، مستفيداً في ذلك من الهامش الذي تتيحه الفلسفة، بوصفها بحثاً مستمراً عن الحكمة؛ لخلق نمط جديد من الكتابة الموجّهة إلى الطفل، تتجاوز العلاقة التراتبية بين عالم البالغين الذي يمثّل السلطة الأبويّة عادة، والطفل الذي يُستحضر بوصفه

قاصراً يحتاج إلى تلقين وتوجيه؛ وهذا ما دفعه إلى استبدال السرد بالحوار القائم على المساءلة في ما يذكِّر بالنهج الذي اتّبعه سقراط Socrate (470ق.م-399ق.م) في محاوراته؛ لخلق نمط من النصوص التي لا تدّعي امتلاك الحقيقة بشكل مسبق، ولا توهم المتلقي بمعرفة سبل الخلاص، بقدر ما تسهم في بناء المعنى تدريجيًا، في عمليّة تشاركيّة مسكونة بهاجس البحث والسؤال الذي يفضي إلى الحكمة، وكأنّ الكاتب يعيد النظر في المقولة الشائعة "خذوا الحكمة من أفواه المجانين" مدخلاً عليها ما ينبغي تحويره، لتصير "خذوا الحكمة من أفواه الأطفال"، ولا تخفى عنّا في هذا المقام رمزيّة الطفولة بالنسبة إلى الإنسان، ذلك أنّها كما تصفها إحدى الروائيات الفرنسيات أشبه بباب مفتوح، إنّها الشكل المكتمل لأنفسنا « L'enfance est une porte ouverte, elle est la forme complète de nous même ». ممّا يؤدي إلى قلب الخطاطة التقليدية للتواصل بين المبدع والطفل، فيغدو الأول بحاجة إلى الثاني؛ لأنّه يعثر بفضله على مفاتيح العودة إلى زمن الطفولة المفقود.

3. الكتابة الموجّهة إلى الطفل في زمن العنصريّة:

يعد سؤال العنصرية من الأسئلة التي أرّقت الباحثين والفلاسفة على مر العصور، وعلى الرغم من تطوّر الوعي البشري ومواكبة المنظومات الأخلاقية والقانونيّة لمتغيرات الوضع الحضاري، إلاّ أنّ الممارسات العنصريّة لا تزال تطفو إلى السطح من حين إلى آخر، كاشفة عن رواسب ومخلفات من التفكير العدائي في حق الآخر المختلف لم يتمكن الإنسان من محوها وتجاوزها بشكل نهائي، ولأنّنا لا نملك إزاء الظواهر التي لا يمكن القضاء عليها سوى أن نكيّف وعينا بها، بشكل يحد من آثارها ويضيّق مدى انتشارها على المدى البعيد؛فإنّ فعل التغيير ينطلق من الوعي بأنّ ميدان المواجهة يتم على مستوى الأفكار قبل الممارسات، بحكم أنّ طبيعة وعينا وإدراكنا للعالم هي ما يمنحه وجوده وشكله الماثل.

يختار الطاهر بن جلون في كتابه "العنصرية كما أشرحها لابنتي" Le racisme expliqué à ma fille التوجه إلى فئة الأطفال لتوضيح ظاهرة العنصريّة، كاشفاً التباساتها وتداعياتها على الفرد والمجتمع، ولعل ما يبرر اختيار هذه الفئة إدراكه أنّ

تغيير قناعات البالغين وجعلهم يعيدون النظر في ممارساتهم ليس بالأمر الهين تحقيقه، بحكم أنّ تلك الممارسات عادة ما تستند إلى فهم وتأويل مشوّه لنصوص دينيّة يتم انتقاؤها بطريقة براغماتية اختزاليّة؛ لتوفير الغطاء الإيديولوجي الذي يبررها؛ لذا يبقى السبيل الوحيد لإرساء تصوّر سليم بعيدًا عن التحيزات المغرضة هو الانتقال إلى أرض بكر، لم تدنسها الخطابات الإيديولوجية والتحيزات العرقية أو الدينيّة، بغية تغليب المشترك الإنساني على النزعات الضيقة.

يتسم زمن كتابة النص بطابعه الاستعجالي، مما يجعل الكتاب أحد أشكال الالتزام الأخلاقي تجاه فئة يعوّل عليها لرسم معالم مستقبل مختلف، يخلو من بذور الفكر العنصري المتطرّف، وتأكيدًا على البعد الوظائفي للكتابة، يشير بن جلون إلى أنّ هذا النص قد كتب في سياق مظاهرات شارك فيها رفقة ابنته في 22 فيفري 1997 ضد مشروع قانون عنصري في حق المهاجرين في فرنسا، مراهنًا على وجوب إيصال رسالته بشكل يتسم بالوضوح والتبسيط والموضوعيّة.

يشدّد الكاتب على فكرة مركزية ألا وهي أنّ الحرب ضد العنصرية تبدأ من التعليم، ليتدرّج في مطارحة قضايا الكتاب، عبر شبكة من الأسئلة والأجوبة التي تنسج أرضية للتواصل المعرفي بين جيلين مختلفين في قالب حواري تفاعلي.

انطلاقاً من المقدمة المنطقية الأولى والمتمثلة في أنّ العنصريّة نمط مشترك للتواصل عرفته كل المجتمعات، في حين تباينت مواقفها منه، تتناسل القضايا الفرعيّة التي توردها الطفلة تِباعاً، في صيغ استفهامية تفكّك شبكة الأفكار والمفاهيم المتقاربة التي تولّدها الأجوبة، بشكل يجعل نهاية كل مقطع بداية لطرح تساؤل حول مفهوم جديد، ويتجلّى من هذه المقاربة مسعى تحريض الطفل على التفلسف النقدي، والمساهمة في توليد المعاني بدل الركون إلى الأجوبة الجاهزة.

يبدو المفهوم المركزي الذي يعالجه الكتاب "العنصريّة" مركبًا، وحتى يضمن الكاتب اتّضاح معناه يلجأ إلى تفكيكه من خلال التطرّق إلى كل التصورات المصاحبة له، والمتفرّعة عنه، مستحضراً العوامل المولّدة له، كالاختلاف، والخوف، والشعور بالتفوق، إضافة إلى الجهل، مبيناً علاقة الأديان بتشكل هذه الفكرة ودورها في إذكاء

الحروب والنزاعات التي قد تتسبب في إبادة الآخرين؛ إذ يتيح له هذا المدخل استحضار المعطيات التاريخيّة التي تؤكد العواقب الوخيمة التي تترتبعن انتشار الفكر العنصري، كالظاهرة الاستعماريّة والمحرقة النازيّة.

تتغير الأدوار أثناء الحوار، فيفقد الكاتب سلطته الرمزيّة التي تجعله صاحب الأجوبة ليتحوّل إلى سائل يتلقى الحكمة من ابنته، تقول: "هل يمكن أن يشفى العنصريون؟

-تعتبرين العنصرية مرضا؟

-نعم، لأنّه ليس من الطبيعي احتقار شخص لا لسبب سوى لون بشرته المختلف"[1].

يعتقد بن جلون أنّ ترياق الشفاء يكمن في امتلاك الجرأة على مساءلة الذات والتحلي بشجاعة الاعتراف بالخطأ، معتبراً العنصري سجين تصوراته التي تجعله من ناحية خطراً يهدّد الآخرين، وضحيّة لمعتقداته من ناحية أخرى، ممّا يجعله شخصيّة مرضيّة، ليخلص في الختام إلى أنّه لا سبيل لاجتثاث بذور الفكر العنصري سوى تطهير معجم الأطفال من كل الأمثال والأقوال التي تنمّي العنصرية، إيماناً منه بأن ميدان الحرب يبدأ من العمل والاشتغال على اللغة، بحكم أنّها كما يصفها مارتن هيدغر Martin Heidegger بيت الوجود ومخبأ الفكر، ولن يتأتى ذلك دون توفّر الإرادة والمثابرة والخيال، ليختم نصه الحواري بخلاصة مفادها: "كل وجه هو معجزة فريدة. كل وجه رمز للحياة، كل حياة تستحق الاحترام، لا أحد يملك حق احتقار وإهانة الآخرين. نشهد بالاحترام لأنفسنا حين نعامل الآخرين باحترام"[2].

4.الكتابة الموجّهة إلى الطفل في زمن الجائحة:

يحرِّض زمن الأوبئة على التساؤل الفلسفي كرد فعل طبيعي على حالة الضياع التي يولّدها العجز عن فهم أسباب ما جرى، وتوقّع سبل الخروج من نفق الموت الذي يترصد الجميع، إذ يصبح المعيش اليومي أشبه بحياة معطّلة أو مؤجلة، بفعل الانتظار الدائم، على أمل تجديد الصلة بين الماضي الذي يصبح فجأة المقابل الموضوعي للزمن

المرغوب (المثالي)، والمستقبل بوصفه تجسيداً لأمل الانعتاق والعودة إلى ما كان، ونتيجة لذلك يفقد الحاضر مبرّر وجوده ويصير فراغًا معلقًا بين زمنين.

كما يتسبب الوباء في تداعي المنظومات الأخلاقيّة وتراجع اليقينيات المعرفية التي شيّدها الإنسان كحصون يحتمي بها من ضربات القدر، فيغدو عاريًا في مواجهة قلق الموت وخطر الفناء، ممّا يؤدي إلى تراجع الحس المدني في مقابل تنامي النزعات الماديّة وهوس تحقيق الخلاص الفردي، بحكم أنّ التماس المباشر مع الموت يحيي غريزة البقاء التي تطغى على سواها؛ لذا يغدو تحيين القيم بالنسبة إلى الطفل ضرورة ملِحّة لإيقاف تداعيات الوباء، خاصة في ظل تراجع المؤسسات التعليميّة التقليديّة عن أداء دورها بفعل سياسات الحجر، لكن تحقيق الغايات المرجوّة لا يمكن أن يتم وفق الطرق القائمة على التلقين، بحكم أنّ الواقع قد أثبت تراجع فعاليتها.

يستثمر الطاهر بن جلّون في كتابه الفلسفة كما أشرحها للأطفال Philoexpliquée aux enfants الصادر عن دار غاليمار سنة 2020 الحيرة التي ولّدها حضور جائحة كورونا؛ ليحرِّض الطفل على الدخول في لعبة ذهنيّة، يمارس فيها حقه في التفاعل مع ما يجري حوله دون تراتبية مسبقة؛ لإبداء رأيه في المفاهيم والتصورات التي تعرض عليه والتي لا تستثني جانبًا من جوانب الحياة دون أن تتطرق إليه مثل: سؤال القيم، الحقيقة، الشك، الموت، الإرهاب، الذكاء الاصطناعي وغيرها من القضايا التي تمس الجوانب الفكرية والعاطفية على المستويين الفردي والجماعي، وعلى الرغم من غياب صوته في الحوار بشكل مباشر، فإنّ الكاتب ينطلق في مخاطبته بوصفه متلقٍ مفترض، يعرض عليه الفكرة دون أن يدّعي امتلاك حقيقتها، بل يترك الباب موارِبًا ومفتوحاً للطفل حتى يُسمِع صوته، وذلك من خلال القفلات التي ينهي بها الحديث عن كل فكرة، والتي يستعيرها من مجال اللعب بقوله "حان دورك" à toi de jouer، موجهاً إليه سؤالًا مستفزاً كي يخرجه من نمط التلقي السلبي إلى التلقي الفاعل، مستبدلاً جديّة التعليم وصرامته بمتعة اللعب، محوّلًا بذلك الفلسفة إلى لعبة يتولّى طرفان تركيب أجزائها، مما يخلق المتعة ويخلّف الفائدة الناجمة عن دهشة الاكتشاف، جاعلاً كتابه نصًا غير مكتمل Un texte inachevé ليتلاءم مع نزوع الفلسفة الدائم للتفكير

والتساؤل، بعيداً عن السقوط في وهم الحقيقة، كما تغيّر هذه الاستراتيجيّة العلاقة النمطيّة بين المعلّم والمتعلِّم،موحِّدة مسعى كل منهما في السير على نهج يلتمس العثور على مفاتيح الحكمة، التي تبقى منفلتة وعصيّة عن الامتلاك، ذلك أنّ ادعاء امتلاكها يفقد الحياة مبرّر وجودها.

يتناول الطاهر بن جلون في مقدمة الكتاب السياق العام الذي أحاط إعداد مادته، والمتمثّل في جائحة كورونا، محاولاً توضيح مسببات ما جرى انطلاقًا من إبراز دور الإنسان في تلويث المحيط، نتيجة انتهاج سياسات غير عقلانية في التصنيع والاستهلاك، وبعد أن يعدّد المخاطر الكثيرة للجائحة على حياة المرضى والمسنين يتجنب الإغراق في أجواء الخوف،فيخاطب الطفل مستشعرًا وعيه؛ لتحريضه على الشعور بالثقة في النفس والمسؤولية تجاه الآخرين، فضلاً عن تحفيز الحس البطولي الذي يختزنه بداخله، مراهنًا عليه بوصفه المخلِّص المنتظر لكوكب الأرض، بعيداً عن كل تصوّر غيبي لفكرة الخلاص، وتعد هذه الطريقة إحدى المقاربات الأساسية لجعل الطفل يتفاعل بشكل إيجابي مع ما سيقدم له؛ نتيجة تثمين دوره في عمليّة إنقاذ الحياة على هذا الكوكب، يقول:" سترى كيف أنّ موضوع البيئة سيتكرر في هذا الكتاب مثل لازمة موسيقية. إن كانت لدي أمنيّة فهي أن تُدرج هذه اللازمة في مغامرة حياتك. استخدم عقلك، كن خلاقًا، وظِّف حس الدعابة، خيالك، قوتك، سخاءك، تستطيع بإرادتك وذكائك أن تحافظ على الجمال الموجود في الحياة وعلى هذه الأرض، وأن تحول دون أن يطغى الظلام ليحجب النور"[3]، مشيراً في الوقت ذاته إلى ما رافق ظهور الوباء من انتشار الأخبار الكاذبة « Fake news » بغية تنبيه الطفل إلى ضرورة إقامة مسافة فاصلة بينه وبين ما يتلقاه من معلومات، أياً كانت طبيعة مصدرها، بما في ذلك مادة هذا الكتاب؛ لأنّ هدفه ليس تقديم الأجوبة بقدر ما يتمثّل في إضاءة زوايا الفكر؛ لتمكينه من تشكيل حكمه ونظرته الخاصة للأشياء؛ أي تحريضه على التفكير النقدي وعدم التسليم المسبق بالحقائق، انطلاقًا من أنّه لا وجود لحقيقة مطلقة.

1.4 آليات الكتابة الفلسفيّة الموجّهة إلى الطفل:

يستعين الكاتب في البداية بقالب الحكاية الشعبيّة لتقريب موضوع الفلسفة إلى ذهن الطفل، فيروي على مسامعه حكاية "موحا"، الرجل الذي عُرف بصراحته وجرأته على قول ما يفكر فيه بحريّة دون مخافة الخسران؛ لأنه لا يملك ما يخشى ضياعه ولا يرتهن وجوده لأحد، وهذا ما جعل الآخرين يصفونه بالحكيم والمجنون في الآن ذاته، وفي ذلك يتناص بن جلون مع روايته السابقة "مُحا المعتوه مُحا الحكيم".

يثير هذا الجمع بين الحكمة والجنون التساؤل لمعرفة الحدود التي تمّ تجاوزها فأفضت فجأة إلى معنى مستهجن لا يحظى بالرضا والقبول اجتماعيًّا، فهل الحكمة ضرب من الجنون أم أنّها في نظر الآخرين تعدّ كذلك؟

وحده الاحتفاء بالحس الطفولي الكامن في كل عقل بشري يسمح بهذا التجاور بين الحكمة والجنون، ولعلّ أبرز صورة تجسّد هذا التلاقي الخلاّق تعود إلى عالم الفيزياء ألبرت أينشتين Albert Einstein الذي كان "يعبث بآفاق الرؤية أمام مشاهديه، إذ يخرج لسانه كالطفل النزق في وجه الآخرين. فتبدو روحه الطليقة سارية إلى المتلقي قصداً كأنه يقول: انظروا إلى هذا الطفل الذي مازال يسكنني حتى اللحظة رغم هذا الإبداع الشاق ورغم أن أفكاري جافة تتعامل مع الكون والمجال الموحد والطبيعة والزمن والحركة [...] لقد اعتبر اينشتين الجنون معياراً لقبول النظرية العلمية من عدمها. فحينما عرضت عليه إحدى النظريات أبدى نقداً شديداً لها قائلاً: النظرية غير مقنعة لأنها ليست مجنونة بما فيه الكفاية حتى يتم تصديقها. وكأنَّ عالِم الفيزياء العبقري يجب أن يصدق الجنون بما فيه من نزق ومخاطرة وليس العقل"[4] بما فيه من صرامة وقيود، ذلك أنّ الجنون الحكيم كما يذهب إلى ذلك خالد بلقاسم "يفكك المعنى المعتاد للجنون، ويفكك وهم الحقيقة الوحيدة، ويلقي بمعنى الحقيقة في التشظي المانع للامتلاء. إن هذا التفكيك أحد رهانات استنبات الغموض في كل شيء"[5]، وهذا ما يجعله يتقاطع مع هاجس الفلسفة المتمثل في العيش في أرض لم تستبحها اليقينيات.

يقول الفيلسوف ديفيد رونيجارد David Ronnegard "عندما لا يوجد ما يمكننا أن نخسره فإننا ندرك تماماً ما يتوجب علينا ألا نخسره"[6]، وفق هذا المنطق أدرك

"مُوحا" أنّه لا يملك غير حريته؛ لذا كان التمسّك بها شكلًا من أشكال إثبات الكينونة المتفردة، ودافعاً للاقتراب من القول الحر الذي لم تدنّسه عوارض الحياة من حاجات أو مصالح أو نزعات، فصار بمثابة صوت الحقيقة العاريّة المنبعث من البئر العميقة، تلك التي يخجل الجميع من النظر إليها، والشاهد المحايد الذي يراقب العالم لا هازئاً أو ساخراً؛ بل ناقداً ومصوِّباً.

من خلال هذه المقاربة يعثر الطاهر بن جلون على القاسم المشترك بين مُوحا وسقراط، فكما أتّهم الأوّل بالجنون أتّهم الثاني بإفساد الشباب ودفع حياته ثمنًا لذلك، وهذا ما جعل "موحا" في هذا النص طيفًا من أطياف سقراط التي تجلت في الأزمنة الحديثة، فكان السير على خطاه خياراً انتهجه بن جلون لشرح وتبسيط ومساءلة ما يقرب مائة مفهوم يجري تداوله في الحياة اليوميّة.

يتعلق المفهوم الأوّل بماهيّة الفلسفة بحكم أنّها القضية الجوهرية التي يعالجها الكتاب، ويعود الفضل في ظهور توجّه تدريسها للأطفال بوصفها نمط حياة إلى الفيلسوف الأمريكي ماثيو ليبمان Mattew Lipman، شرط أن يتم ذلكبطرق تبسيطيّة مختلفة عن تلك التي تدرّس بها أكاديمياً للكبار، فقد جسّد رؤيته سنة 1974 في روايته الموسومة بـ "اكتشاف هاري ستولمير"[7]؛ إذ الطفل حسبه مهيّأ فطريًا لتقبّل الفلسفة؛ بحكم نزعته النقديّة وفضوله الذي يحرِّضه على التساؤل بشكل دائم؛ رغبة في العثور على الأجوبة التي سيؤثِّث بها معرفته ورؤيته للعالم لاحقاً، معارضاً بذلك الأطروحة التقليديّة التي تنفي إمكانيّة الاشتغال الفلسفي لدى الأطفال استناداً إلى تصورات أفلاطونيّة تربط المعرفة العقلية بمرحلة الرشد أو افتراضات أرسطيّة مفادها الاعتقاد" بأننا نولد "ورقة بيضاء" (أو لعلّنا نتخيّل ذلك)، وأنّ معرفتنا تنتج عن التجربة، وعليه، فالاشتغال الفلسفي يتطلّب معرفة يبنى عليها، فكلّما تقدّمنا في العمر كلّما اختطّ على صفحتنا أكثر فأكثر، ونراكم، تالياً، مزيدًا من المعرفة."[8]، إضافة إلى تبني نظريّة جان بياجيه Jean Piaget حول التطوّر المعرفي للطفل وارتباط التفكير الفلسفي لديه بمراحل عمريّة متقدِّمة (المرحلة الرابعة)، ويتبيّن من خلال عرض الأطروحتين أنّ مرد الاختلاف وتعارض المواقف ناجم عن اختلاف المرجعيات والمنطلقات، فضلاً عن المقارنة

الخاطئة بين الكبار والأطفال في كيفيّة التعاطي مع الفلسفة بوصفها محتوى، بدل التركيز عليها بوصفها نمط تفكير.

في مقام آخر تشير الروائية والفيلسوفة الأمريكية ريبيكا نيوبرغر غولدشتاين Rebecca Newberger Goldestein في أحد الحوارات التي أجريت معها إلى المتعة التي يستشعرها الأطفال عند اكتشافهم للتيمات الفلسفية والأطر الذهنية الكبرى، مؤكدة على أنّ كل ما يحتاجه الطفل هو تنميّة الحس الفلسفي لديه، بحكم توفره على أساسياته المتمثلة في حب المناقشة والاستقصاء، مستشهدة في ذلك بتجربتها في هذا المجال مع أطفالها، تقول:" يمنح التفكير الفلسفي الأطفال قدرة على نقد الذات والدفاع عن الآراء الشخصية في ذات الوقت الذي تحترم فيه آراء الآخرين وتؤخذ في جدة كاملة وفي إطار من التسامح الجميل وهو الأمر الذي يساعد في خلق مواطنين صالحين بعيدين عن الانسياق وراء الدوغمائية القاتلة، كما تساعد الفلسفة الأطفال من جانب آخر على التفكير في المنظورات الأخلاقية: فالأطفال لديهم حس أخلاقي ذاتي طبيعي"[9]، وتكمن أهمية هذا الطرح في أنّه ينمي الحس المدني والاجتماعي لدى الطفل دون الحاجة إلى فرضه عن طريق التلقين، وهذا ما يجعلنا بحاجة إلى إعادة النظر في أساليب التربيّة الأخلاقيّة القائمة على الوعظ والتوجيه.

يستحضر بن جلون المعنى اللغوي لكلمة فلسفة في اليونانيّة ألا وهو "محبة الحكمة" ليتدرّج لاحقاً في تقديم ما يثبت إمكانيّة تدريسها للطفل؛ فيلجأ إلى تقديم أمثلة توضيحيّة تموضعت في نصه بوصفها مرتكزات يتكئ عليها؛ نظراً إلى غياب المفاهيم والتصورات التي يمكن التأسيس عليها في ذهن المخاطَب (الطفل)، مؤكداً من خلالها على أنّ موضوعات الفلسفة ليست حِكراً على عالم البالغين؛ بل يمكن أن تصير متاحة للأطفال إذا تمّ شرحها بألفاظ بسيطة "فنحن نتفلسف حين نفكر"، وقبل أن تتحوّل هذه الفكرة إلى مسلّمة، يلقي بها في ملعب الطفل قائلًا "حان دورك، هل توافق الفيلسوف آلان الذي قال: أن أفكر يعني أن أقول لا"[10].

لم يكن اختيار هذه العبارة اعتباطياً؛ بل يتعلّق الأمر تحديدًا بالانشغال المحوري لأطروحة الكتاب والمتمثل في التحريض على التفكير النقدي، ورفض التسليم المسبق

بكل ما يقال، إذ يُشترط لتحقيق ذلك ترك مسافة تفصل المتلقي عن القول الملقى على مسامعه، تتيح له أن يعرضه على محك النقد والتمحيص، وهو أمر لا يتحقق إلّا بامتلاك الجرأة على إبداء الرأي والقدرة على إثبات الحضور الفاعل، ممّا يجعل التفكير امتيازاً بشريًا، يفصل الإنسان عن عالم الحيوان، وهذا ما دفع بن جلون إلى اعتباره بداية كل فلسفة، مستشهدًا في ذلك بالكوجيطو الديكارتي "أنا أفكر إذاً أنا موجود".

5. الخطاطة الهيكليّة المنتهجة في بناء النص:

لم يعتمد الكاتب تقسيمًا محددًا للمفاهيم التي أوردها، إذ يمكن أنّ نلمح أنّ السِّمة العامة هي اعتماد المنطق التوليدي الذي يذكّر مرّة أخرى بمقاربة سقراط للفلسفة، والتي يشبهها بدور القابلة؛ إذ يقول في محاورة ثياتيتوس: "أنا ابن أم قابلة اسمها فايناريت، وهي شجاعة وذات بنية قوية، وأمارس المهنة عينها. هي تحضر أطفالا إلى العالم، وأنا أولّد الرجال، وأعنى بأرواحهم عندما يكونون مرهقين وقلقين، ولا أهتم بأجسادهم. وأمّا قمّة نجاحي في فنّي فهو الاختبار الكامل، سواء أكانت الأفكار التي يبرزها عقل الإنسان الفتي خصبة وحقيقية، أو مزيفة وميتة. والله أجبرني على أن أكون قابلة، وأنا لست حكيما، وليس لديّ أيّ شيء لأظهره"[11]، وكذلك الشأن بالنسبة إلى ما يقترحه بن جلون؛ فكل مفهوم يتولّد عمّا قبله بشكل مستمر ولا يكتمل تجليه دون العودة إلى ما يحمله الطفل من تصورات، وكأنّه بذلك يكتفي بدفعه إلى اكتشاف جوهر المعاني المنبعثة من أعماقه، والتييمكن تقسيمها بالنظر إلى طبيعة العلاقة التي تؤسِّس لها، ضمن مستويات ثلاث: المستوى الفردي والمستوى الاجتماعي والمستوى البيئي.

1.5 المستوى الأوّل: علاقة الإنسان بذاته:

يحرص الطاهر بن جلون على جعل الطفل على دراية بالمفاهيم التي تشكِّل وعي الفرد بشخصيته بوصفه ذاتاً فاعلة في الوجود، ويغلب على هذه المفاهيم الجمع بين البعدين القيمي والعاطفي، مثل: الشك، الخير، الشر، الحب، الوحدة، النرجسيّة، الموت، الجمال، الخوف، الشجاعة، الأنانيّة...وغيرها، ويأتي الاهتمام بهذا الجانب انطلاقاً من الوعي بطبيعة الدور المركزي للذات الإنسانيّة في علاقتها بالوجود، إذ لا يمكن تأسيس أية علاقة سليمة مع العالم الخارجي إذا كنّا نجهل حقيقة أنفسنا أو

نسيء تقدير إمكاناتها، فمعرفة العالم تبدأ بمعرفة ذواتنا، وهذا ما يحيلنا إلى المقولة الشهيرة "اعرف نفسك" كواحدة من حكم دلفي التي تذكّر بفلسفة سقراط المستوحاة منها "اعرف نفسك بنفسك"، فالرهان القائم على بناء شخصيّة الفرد وتحصين وعيه بالمفاهيم والقيم التي يهتدي بها ليمنح العالم الخارجي معناه يعد السبيل الوحيد لإحداث التغيير الإيجابي في مسرح الحياة، أو تقويم انحرافاتها، ولن يتم ذلك سوى بفتح باب الحوار الفلسفي الذي يحرّر الذات الإنسانيّة من سطوة الهواجس التي تؤرقها والماديات التي تقيّدها؛ إذ يقودها ذلك إلى الدخول في عوالم المعرفة " لأنها تحن إلى ذلك الأصل الذي جاءت منه، وبخاصة أنها كانت عالمة قبل أن يعتقلها الجسد الذي يؤثر في ماهيتها ويحكم عليها بالجهل والانصهار في اللذة الحسية من أجل أن تتحول إلى نفس حيوانية تقضي حياتها منغمسة في المحسوس، وليس بإمكانها أن ترفع رأسها إلى السماء وتتأمل وجودها لتتذكر ذلك الأصل الذي حرمت منه"[12]، ويتضح التجسيد الرمزي لهذه الفكرة من خلال الغلاف الخارجي للكتاب الذي يصوِّر تأمل طفل لوجه السماء، إذ يحيل الطفل إلى فكرة الحنين إلى الأصل أو العودة إلى مرحلة الذات العارفة، وكل ما يحتاجه في هذا المقام هو التماس العزاء الذي توفره الفلسفة عبر ممارسة فعل التأمّل.

يستحضر الطاهر بن جلون أقدم الأسئلة التي راودت الإنسان وأكثرها غموضاً، وأعني بذلك سؤال الموت بوصفه أبرز سؤال فلسفي حيّر الإنسانيّة وشكّل قطب رحى المنظومات العقديّة القديمة على اختلاف منابعها الميثولوجيّة والدينيّة، وخلافاً لتقاليد البالغين النمطيّة التي تقضي بعدم التعاطي الجدي مع هذا النوع من الأسئلة المطروحة من قبل الأطفال، فتضطر إلى استبعاده نتيجة غموضه وما يثيره من مشاعر الخوف والقلق والحزن، يقترح مقاربة تجرِّد المفهوم من حمولاته الضاغطة، وتجعله موضوعاً للتأمّل الفلسفي بعيداً عن الطرح العاطفي أو التيولوجي المصحوب بأحكام القيمة؛ فيتدرج في تقريبه من ذهن الطفل معتمداً أساليب تبسيطيّة تجمع بين التمثيل والتعليل والتفسير ثم المساءلة؛ إذ يستحضر في البداية مقولة تعود إلى السنيمائي الأمريكي وودي ألان Woody Allen تلخص ما نستشعره جميعاً حيال هذا الموضوع، إذ يقول: "لا يتعلق الأمر بخوفي من الموت، كل ما في الأمر أني لا أريد أن أكون هنا عندما يحل"[13]، مفسِّراً ذلك بكون الموت يمثّل الحقيقة اليقينيّة الوحيدة التي تُجمع البشريّة

على الاعتقاد بحتميّتها، وفي الوقت ذاته تستشعر الخوف وعدم القدرة على مواجهتها، معلّلاً جهل الأطفال بها نتيجة انغماسهم في غمرة الحياة وعنفوانها.

ينتقل لاحقاً إلى شرح وتفسير فكرة الموت على ضوء المؤشرات الماديّة التي تحيل إليها، والمتمثّلة في توقف الوظائف العضوية للكائن الحي، يقول "الموت هو التوقف عن الوجود حين يتوقف القلب عن الخفقان، يتوقف كل شيء. الجسد جامد. مثل شيء، أو لوح خشبي أو قطعة رخام باردة"[14] ليستدرك هذا التحليل باستنتاج يستحق التأمّل، ألا وهو أنّ ما نسميه موتاً لا يعدو كونه شيئاً يذكر، متماهياً في هذا الطرح مع رؤية الفيلسوف اليوناني أبيقور Epicure (341ق.م-270ق.م)؛ ذلك أنّ الموت الحقيقي حسبه هو المرض والمعاناة، أمّا الخوف المصاحب له فيتعلّق بالمجهول الذي يعقبه وطريقة تعاطي الإنسان معه، والذي ينفتح بدوره على تصوّرات الإنسان التي يحملها عن الجنة والجحيم والحساب في الديانات التوحيديّة، وفي هذا المقام يستشهد الكاتب بنظرة والدته لما بعد الموت وكيف أنّها لم تكن تستشعر الخوف لاعتقادها الراسخ بما ينتظرها من بهجة لقاء الله ورسوله. وبعيداً عن الخوض في صحة هذه المعتقدات من عدمها، يؤكِّد الكاتب على ما هو أهم وهو انتفاء أي احتمال للخلود في هذه الحياة، وفي ذلك إشارة ضمنيّة إلى ما ينبغي على الإنسان تحصيله من قيم وفضائل بدل الانغماس في الحياة الماديّة والوقوع فريسة لملذاتها، ليختم الموضوع بطرح إشكاليّة يرمي بها في ملعب الطفل قائلًا: يقال إنّ العيش هو تعلم الموت، حسب رأيك متى نشرع في تقبّل فكرة الرحيل عن هذا العالم؟ دائما أم بدءاً من لحظة المرض أم حين نتقدم في العمر؟

تلخِّص هذه المقولة جوهر الفلسفة الرواقيّة القائمة على تقبّل القدر كخطوة أولى لتحقيق العيش السعيد وتجنب السقوط في الوعي التراجيدي للعالم، إذ يخرج هذا التصوّر موضوع الموت من حالة الالتباس الناجمة عن طريقة تفاعل الإنسان معه وتعاطيه مع آثاره؛ ليضعه ضمن مساره الطبيعي في الحياة بوصفه رحلة عبور من حالة إلى أخرى على حد تعبير ميشال أونفراي Michel Onfray [15]؛بعيدًا عن الرؤية المتمركزة حول الإنسان ورغبته في السيطرة على نظام الكون وإخضاعه لمنطقه؛ ذلك أنّ تقبّل فكرة الموت دون توجّس ينبّه الإنسان إلى ضرورة اغتنام حاضره؛ كي يعيش الحياة وفق

إيقاعها الطبيعي، دون أن يخسر لحظته الراهنة بالارتماء في أحضان الماضي، مدفوعاً إمّا بالحنين إلى ما فات أو الحسرة عليه، أو لهفة انتظار مستقبلٍ معلّقٍ بظهر الغيب، وتتجلى قيمة هذه الفلسفة في هذا السياق بوصفها درساً عملياً لتعلم فن العيش السعيد في زمن الجائحة.

2.5 المستوى الثاني: علاقة الإنسان بالآخرين:

يتضمن هذا المستوى جملة من المفاهيم التي تحكم علاقة الإنسان بالمجتمع البشري الذي ينتمي إليه، بحكم أنّه كائن اجتماعي بطبعه، وحتى لا تظل علاقته بالآخرين محكومة بمنطق الأهواء المتقلبة والمصالح الذاتيّة المتضاربة، كان لا بد من إطار مرجعي يحكم وينظّم المصالح والعلاقات بين مختلف الأطراف، ولعلّ هذا ما دفع بن جلون إلى تسليط الضوء على ما تفرزه العلاقة مع الآخر من تصوّرات، من ذلك ما يتعلّق بمفهوم الصداقة، الديمقراطية، الحقوق، المساواة، التسامح...وغيرها من المفاهيم التي يغلب عليها البعد الثنائي القائم على استحضار المعنى ونقيضه، وذلك بهدف إرساء تصوّر حول ثقافة العيش المشترك، بناءً على تقبل الآخر المختلف والاعتراف بحقه في الوجود، كأساس لبناء مجتمع مدني تسوده القيم الإنسانية التي تتجلى كعقد اجتماعي يكفل التساوي في الحقوق بين الجميع.

يشكّل مفهوم الصداقة أحد المفاهيم المحورية في عالم الطفولة، لذا يحرص بن جلون على توضيح حقيقته وإبراز قيمته الجوهريّة في حياة الأفراد، إذ يعدّ الصداقةبمثابة هديّة نادرة وثمينة ينبغي الحرص عليها؛ لأنّها الحصن المنيع الذي نحتمي به من الوحدة والخذلان، وقبل أن يصل إلى هذه النتيجة يشرع في كشف طبيعتها المتجردة من المصالح الماديّة الظرفيّة، كاشفاً عن السر الذي يضمن تمتين صلاتها والمتمثل في التقارب الحاصل في الميول ووجهات النظر، مستبعداً في الوقت ذاته أن تكون علاقة مثاليّة يحكمها الانسجام الدائم؛ ذلك أنّها تحتاج إلى الوقت والمحن حتى تُصقل وتصمد في وجه الزمن وتقلباته، ممّا يجعلها أشبه بالنبتة أو الشجرة التي تحتاج إلى عناية ورعاية حتى تثمر، ليتوصل في الختام إلى تحديد السمات العامة التي تجعل هذه العلاقة مختلفة عن غيرها وهي: نبذ الأنانيّة تجسيداً لمبدأ أن يحب الإنسان لأخيك

ما يحب لنفسه، إضافة إلى كونها علاقة مجانيّة متجردة من المنفعة، وفي هذا المقام يفرّق بينها وبين علاقة الحب لعدم توفرها على عامل الانجذاب الحسي، كما يميّزها عن الحب الفطري النابع من الأم تجاه ابنها، وحتى لا يبقى هذا الطرح نظرياً منفصلًا عن الواقع، يُسائل بن جلون الطفل في الختام عن مدى تطابق هذا التصوّر مع النمط الجديد للصداقة الذي فرضته شبكات التواصل الاجتماعي.

يستحضر في مواضع أخرى التداعيات الكارثيّة لضياع القيم الإنسانية نتيجة انفلات السيطرة على الأهواء والنزعات الأكثر سوداويّة في النفس البشريّة، من خلال التطرّق إلى مفاهيم من قبيل المحرقة، العنف، الإرهاب وغيرها، وفي هذا المقام يتخلّى الكاتب أحياناً عن النهج العام الذي اعتمده في كتابه والمتمثل في مساءلة الطفل وإثارة حيرته عند نهاية كل فكرة؛ فيستبدل طرح السؤال بتقديم توضيح أو توجيه؛ لاعتقاده بأنّه لا توجد سوى زاوية واحدة لرؤية الموضوع من خلالها، ويمكن أن نلحظ ذلك في مواضع منها: الحديث عن الحقد والحرب العالمية الثانية، أمّا بخصوص المحرقة النازية والتحرّش بالأطفال وزنا المحارم فيستبدل صيغة اللعب بالدعوة إلى عدم النسيان، ويمكن تفسير ذلك بخطورة وحساسيّة الوضع الذي يترتب عن هذه الممارسات، ذلك أنّ الأمر هنا يتعلق بجرائم لا بوجهات نظر.

3.5 المستوى الثالث: علاقة الإنسان بالبيئة والمحيط:

يتضمن هذا المستوى المفاهيم المؤسّسة لنمط العلاقة التي تربط الإنسان بالمحيط الخارجي، ويمكن أن نلحظ في هذا المقام إدراج بن جلون لمفاهيم وتصورات غير تقليديّة تتماشى مع المتغيرات الحضاريّة التي يفرضها العصر، والأزمات التي ينبئ بانفجارها مستقبلاً، خاصة في المجال البيئي، من ذلك ما تعلّق بالثورة التقنيّة وتغيرات المناخ، ومن المفاهيم التي تصب في هذا المنحى: الذكاء الاصطناعي، الخوارزميات، الماء، البيئة...وغيرها، وتوحي هذه المقاربة بإيمان الكاتب بأنّ تنشئة الطفل لا ينبغي أن تقوم على استنساخ ماضي الآباء لخلق أنماط مشابهة ونسخ مكرورة تعيش زمناً مضى وانقضى؛ بحكم أنّ سيرورة الحياة والتفاعل المستمر بين الإنسان والعالم يولّد واقعاً مختلفاً له منجزاته وإخفاقاته، ممّا يتطلّب الاستعانة بوسائل معرفيّة جديدة لمقاربته

وتجاوز معضلاته، فبقدر ما تبشِّر الفتوحات العلميّة اليوم بعصر غير مسبوق تزاحم فيه الحواسيب العقل البشري؛ فإنّها تضعه أمام العديد من الرهانات التي يتطلّب الخوض فيها فتح المجال أمام السؤال الفلسفي للنظر في مآلاتها، من ذلك ما يتعلق بمنزلة القيم والضمير الأخلاقي في عالم البرمجيات والذكاء الاصطناعي.

أمّا القضيّة الأخرى التي لا تقلّ أهميّة فهي الوضع البيئي ومخاطر تغيرات المناخ، وهنا نلحظ أنّ الطاهر بن جلون قد افتتح كتابه بقضية البيئة والوضع الوبائي الذي يتهدد الحياة على كوكب الأرض، واختتمه بها، مشيراً إلى أهميّة التطرق إلى بعض قضاياها، من ذلك ما تعلّق بالتلوّث وضرورة الحفاظ على الموارد المائية في ظل اتساع خطر الجفاف الذي ينبئ بأنّ الحروب المقبلة ستكون على المياه، مذكراً في الختام بوجوب الحفاظ على البيئة لأنّ طبيعة الحياة التي سنحياها تتوقف عليها، وعلى الرغم من عدم اندراج هذه الموضوعات بشكل مباشر ضمن التصورات الفلسفيّة؛ فإنّها تحيل ضمنيًا إلى تصور فلسفي لفكرة البداية والعود الأبدي إلى الأرض بوصفها رحم البشريّة، ويتقاطع هذا الطرح مع مبادرة "من المهد إلى المهد" التي أطلقها كل من الألماني ميشائيل براونغارت Michael Brangart والأمريكي ويليام ماكدونوف William Mc Dounought لترشيد الاستهلاك عبر تبني فلسفة صناعيّة بيئية[16]، فلا حياة خارج هذا الرحم أو المهد الذي تمثله الأرض؛ لذا فالعناية به شرط وجود والضامن الوحيد لاستمراريته.

تنتظم موضوعاته الكتاب ضمن بناء دائري، مشكِّلة حلقة ضاع فيها الحضور المركزي للمعلّم؛ إذ أصبح رفقة المتعلّم على مسافة واحدة من الموضوع المعالج، فامّحت بذلك الحدود التقليديّة، وتحوّلت الفلسفة إلى حواريّة مرحة، نسج هاجس التساؤل تفاصيلها، كما بدا المسار الرمزي للموضوعات، المحكوم بالعودة إلى البدايات دالاً على تصوّر العلاقة بين الفيلسوف والطفولة؛ إذ يتضح من خلال الطرح الذي يقدمه الكتاب أنّ "الفيلسوف يظل دائما طفلا يستهويه اللعب بأخطر النعم؛ نعمة الحكمة، في جو أزرق ساحر"[17]،ولعلّ هذا ما دفع أرسطو Aristote (384ق.م-322ق.م) إلى الاعتقاد بأنّ التفكير الفلسفي ينقل صاحبه إلى جزر السعداء، ويؤمّن له إقامة شعريّة على هذه الأرض على حد تعبير هايدغر، وبالعودة إلى سياق كتابة هذه الحواريّة يتضح هاجس

البحث عن منفذ يتيح كسر الحصار الخانق الذي فرضه تفشي الوباء والعبور إلى عوالم الفلسفة الرحبة التي تحرِّر المعنى من ثنائية الانغلاق والغياب، كما تبعث المرح في العلاقة بين البالغين والأطفال وتتيح لهما العثور لا على عشبة الخلود؛ لمواجهة خطر الموت والفناء، وإنّما على عشبة السعادة لإعادة الحياة إلى مسارها الطبيعي.

6. خاتمة:

اقترح الطاهر بن جلون نمطاً مختلفا للكتابة الموجهة إلى الطفل، تأخذ بعين الاعتبار المخاطر الأمنيّة والبيئية التي تطرحها كل من العنصريّة والجائحة، وتراهن على وعي الطفل بها لتجاوز مخلفاتهما والقضاء على تداعياتهما مستقبلًا، وهذا ما جعله يقدِّم مجموعة من الرؤى والتصورات في قالب حواري فلسفي، يراهن على طرح الأسئلة بوصفها مفاتيح المعرفة، بدل الاكتفاء بالأجوبة الجاهزة المؤطّرة بمرجعيات محددة سلفاً، وهو طرح يتطلّب سقفاً مرتفعاً من الحريّة يتيح الخوض في مختلف القضايا دون التقيّد بأحكام مسبقة، خاصة إذا تعلق الأمر بما يعد من الطابوهات.

يطرح هذا المشروع بعض التساؤلات على صعيد إمكانيّة تجسيده في البيئة العربية التي تحاصرها اليقينيات، فضلاً عن خصوصية الثقافة التي تحكم العلاقات في مستواها الرسمي والجماهيري، والتي يعدالخروج عن نهجها في الكثير من الأحيان انحرافاً وانتهاكاً لسلطتها، كما أنّه يثير إشكاليّة الحقوق والمفاهيم بين البعدين الكوني والخصوصيّة المحليّة ومدى قدرة الطفل على الوعي بها، ولعل هذا ما يبرِّر خيار كتابة النصين باللغة الفرنسيّة، ممّا يوحي بأنّ الطفل الفرنسي هو المعني الأوّل بهذه المضامين بالنظر إلى انسجامها مع أفق التواصل المتاح في البيئة الغربيّة التي قطعت أشواطاً متقدمة في مسار التحرّر من سطوة المرجعيات، لذا فإنّ أي مسعى لتجسيد هذه التجربة في الواقع العربي لا بد أن يراعي خصوصيته لتكييف المحتوى مع أفق تلقي الطفل العربي.

*** *** ***

7. الهوامش:

[1] Tahar Ben Jelloun, le racisme expliqué à ma fille, éd Seuil, janvier 1998, p60.

[2] Ibid, p66.

[3] Tahar Ben jelloun, philo expliquée aux enfants, Gallimard jeunesse, Paris, 2020, p5.

[4] سامي عبد العال، الفلسفة والأطفال: تأسيس العقلانية المرحة، تاريخ النشر: 9 يونيو2021، تاريخ الاطلاع: 2021/07/10.

https://couua.com/2021/06/09/%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D9%81%D8%A9-%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B7%D9%81%D8%A7%D9%84-%D8%AA%D8%A3%D8%B3%D9%8A%D8%B3-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D9%82%D9%84%D8%A7%D9%86%D9%8A%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D9%85/

[5] خالد بلقاسم، دون كيخوطي دي لامنشا أو تشظي الحقيقة، مجلة الدوحة، عدد خاص 166-167، أغسطس-سبتمبر، الدوحة، 2021، ص36.

[6] ديفيد رونيجارد، ملحد في الجحر: كيف يجد الملحد العزاء في مواجهة الموت؟، تر: فواز البنفلاح، تاريخ النشر: 2017/09/24، تاريخ الاطلاع: 2021/08/20.

https://hekmah.org/%D9%85%D9%84%D8%AD%D8%AF-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D8%AD%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D8%B9%D8%B2%D8%A7%D8%A1-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%85%D9%88%D8%AA-%D8%B1%D9%88%D9%86%D9%8A%D8%AC%D8%A7%D8%B1%D8%AF/

[7] تتكون هذه الرواية من 96 صفحة موجهة إلى أطفال المرحلة المتوسطة، تصور هاري وزملاءه في الصف الخامس، يكتشفون عدة مفاهيم وقواعد أساسية من منطق أرسطو، وتنتابهم الحيرة حول أسئلة عن طبيعة الفكر والعقل والسببية والواقع والمعرفة والمعتقد، وعن الصواب والخطأ والعدالة والظلم. ولا تقدم القصة أي لفظ من الألفاظ الخاصة بالفلسفة، ويبدأ الاستفسار الفلسفي فيها من الأطفال وليس من الكبار. ينظر: مايكل بريتشارد، فلسفة للأطفال، موسوعة ستانفورد للفلسفة، تر: سميرة أحمد بادغيش، مجلة حكمة، 2018، ص14.

[8] كارين موريس، الأطفال والاشتغال الفلسفي، تر: فاطمة محمد زراقط، مجلة المحجّة، العدد 29، معهد المعارف الحكمية للدراسات الدينيّة والفلسفية، لبنان، 2014، ص17-18.

[9] لطفية الدليمي، فيزياء الرواية وموسيقى الفلسفة حوارات مختارة مع روائيات وروائيين، دار المدى، ط1، بغداد، 2016، ص69.

[10] Tahar Ben jelloun, philo expliquée aux enfants, p13.

[11] أفلاطون، المحاورات الكاملة، محاورة ثياتيوس، تر: شوقي داودتمراز، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1994، ص108.

[12] عزيز الحدادي، الفلسفة النقدية ومرح الحقيقة، منتدى المعارف، ط1، بيروت، 2016، ص56.

[13] Tahar Ben jelloun, philo expliquée aux enfants, p85.

[14] Ibid, p86.

[15] Sven Ortoli, une recette existentielle, Magazine philosophie hors-série, n49, 2021, P10.

[16] ينظر: أشرف فقيه، من المهد إلى المهد نحو فلسفة صناعية بيئية جديدة، مجلة القافلة، مارس-أبريل، السعودية، تاريخ النشر:2018، تاريخ الاطلاع: 2021/08/25.

https://qafilah.com/ar/%d9%85%d9%86-%d8%a7%d9%84%d9%85%d9%87%d8%af-%d8%a5%d9%84%d9%89-%d8%a7%d9%84%d9%85%d9%87%d8%af

[17] عزيز الحدادي، الفلسفة النقدية ومرح الحقيقة، ص16.